﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين طلب العذاب حين اليأس من تحقيق المطلوب، وبين العودة إلى طلب المرغوب

عندَما عرضَ الَّذينَ كفروا على الرَّسولِ ﷺ أنْ يأتيَ بالمعجزاتِ منْ لدنِ تفجيرِ الأرضِ ينبوعًا، حتّى الإتيانِ باللّهِ والملائكةِ قبيلًا؛ كانَ ردُّهُ عليهم الرَّفضَ، فكانَ آخرَ ما خيّروهُ هنا أنْ يكونَ لهُ بيتٌ منْ زخرفٍ، أوْ أنْ يرقى في السَّماءِ، وما علموا أنَّ كلَّ شيءٍ بيدهِ سبحانه وأنَّهُ ليسَ لهُ مِنَ الأمرِ شيءٌ في "تنزيهٍ للّهِ وتعجيبٍ منهُ؛ لوضوحِ عنادِهم بطلبِهم ما لا قدرةَ عليهِ، إلّا للإلهِ ممَّنْ لا قدرةَ لهُ على شيءٍ منهُ إلّا بإذنِ اللّهِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُخۡرُفٍ﴾: اسمٌ رباعيٌّ مجرَّدٌ، ويدلُّ على معنى الزّينةِ عمومًا، وإنْ كانَ الأصلُ فيهِ الذَّهبَ، وإذا شُبِّهَ بكلِّ مموَّهٍ مزيَّفٍ؛ سُمّيَ زخرفًا، وإذا زَيَّنتَ البيتَ، وأكملتَهُ، وزوَّقتَهُ؛ فقدَ زخرفتَهُ[2]، ومعنى ﴿بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾ الوارد في الآية: "مِنْ ذهبٍ، وأصلهُ الزّينةُ، والمزخرفُ: المزيَّنُ، وهذا أقربُ إلى الأصلِ الَّذي قرَّرناهُ، وإنَّما غلبَ على الذَّهبِ؛ لأنَّهُ أشيعُ جواهرِ التَّزيُّنِ والتَّمويهِ وأنفَسُها حيثُ يُطلى بهِ ظاهرُ الشَّيءِ"[3].

2) ﴿تَرۡقَىٰ﴾: (رقي) أصلٌ يدلُّ على الصُّعودِ، ومنْ صعدَ في السُّلَّمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 513.
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (زخرف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زخرف).

والدَّرجِ؛ فقدِ ارتقى ومعناهُ الصُّعودُ والارتقاءُ في الجبلِ والدَّرجةِ، "ومن المجازِ: ما زالَ فلانٌ يترقّى بهِ الأمرُ حتّى بلغَ غايتهُ، والجودُ مرقاةٌ إلى الشَّرفِ، والمجدُ صعبُ المراقي، ولقدِ ارتقيتَ - يا فلانُ - مرتقًى صعبًا، ورقّاكَ اللّهُ أعلى الرُّتَبِ"[1]، ومعنى ﴿تَرْقَىٰ﴾ في الآيةِ: تصعدَ، مِنْ رقيتَ في السُّلَّم رُقيًّا عندَ صعودكَ عليهِ وارتقائك مثله[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استنكار طلبهم بيتًا من ذهبٍ، أوْ رقيًّا في السّماءِ، واصطحاب كتابٍ شاهد بذلك

كانَ خامسَ طلباتهم بالإتيانِ بالمعجزاتِ شرطًا لإيمانهمُ المزعومِ، أنْ طلبوا منهُ أنْ يكونَ لهُ بيتٌ منْ ذهبٍ وزينةٍ، فإن لم تفعلْ؛ فهلّا وضعتَ سلَّمًا، وارتقيتَ في السَّماءِ صعودًا، مشترطينَ في رقيّهِ هذا أنْ يكونَ متبوعًا بأنْ ينزِّلَ عليهم كتابًا يجدهُ أحدهُم عندَ رأسهِ، فيقرأُ ما فيهِ، وأن يشهدَ على ذلكَ أربعةٌ من الملائكةِ أنَّ هذا الكتابَ من اللّهِ تعالى[3]، فلمّا يئسَ منهم؛ أطلقَ تعجُّبهُ بأمرٍ منْ ربِّهِ، ونزَّهَ نفسهُ منْ أنَّ تلكَ الآياتِ المعجزاتِ ما ينبغي أنْ تكونَ لهُ منْ تلقاءِ نفسهِ بجامعِ بشريَّتهِ ورسالتهِ، الَّتي يتلقّاها من الحقِّ سبحانهُ؛ فلا يقترحُ ما ليسَ فوقَ طاقتهِ وقدرتهِ، و"هلْ أنا إلّا بشرٌ، أي: عبدٌ منْ عبيدهِ منْ بني آدمَ؟ فكيفَ أقدرُ على ما تكلِّفونني"[4]؟!

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالحرف ﴿أَوْ﴾:

العطف على ما سبق، وتخييرهم بين مضامين طلباتِهم التَّعجيزيّةِ الغريبة

صدَّرَ الآيةَ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ بحرفِ العطفِ والتَّخييرِ، ﴿أَوْ﴾ استمرارًا لتعدُّدِ طلباتِهم في الآياتِ الَّتي سبقتْ من بابِ التَّعجيزِ؛ فطلبوا هنا أن يكونَ لهُ بيتٌ من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (رقي).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 331.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/ 233.
(4) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/ 4290.

زخرفٍ، معَ أنَّهُ كانَ فقيرًا يتيمًا[1] عطفًا على طلبهِم أن يأتيَ باللّهِ والملائكةِ قبيلًا، معَ علمهِم باستحالةِ ذلكَ.

دلالة التَّعبير بفعل الكينونة مضارعًا:

عبَّر بفعل الكينونة الدّالِّ على رسوخِ الصِّفةِ وثبوتِها ودوامها على هيئةِ المضارع في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ﴾ للدّلالة على ترغيبه بتملُّكه على وجه الدّوام والثُّبوت والتّحقُّق، وفي الأزمنةِ كلِّها ماضيًا منقطعًا، وماضيًا مستمرًّا وحاضرًا ومستقبلًا.

متاع الدُّنيا المطلوب، لا دوام له ولا ثبوت، وظنٌّ غيرِ ذلك وهمٌ وخداع

سرُّ التَّعبيرِ بشبهِ الجملةِ ﴿لَكَ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ﴾، استعملَ شبهَ الجملةِ ﴿لَكَ﴾ للدَّلالةِ على خصوصيَّةِ البيتِ لهُ وحدهُ ﷺ[2]؛ بدلالةِ لامِ المِلكِ، وكافِ الخطابِ إمعانًا في تعجيزِه.

الإغراء بالخصوصيّة والملكيّة الفانية، لا يخدع القلوب المتعلّقة بالله

الغرض من تقديمِ شبهِ الجملةِ على الاسمِ:

قدَّمَ شبهَ الجملةِ على الاسمِ في قولهِ تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ، فإنَّه لَمّا كانَ هذا البيتُ له من الخصائصِ والمزايا من كونهِ من زخرفٍ ذهبٍ أو نحوهِ ما لهُ؛ طلبوا ألّا يكونَ مثلهُ لأحدٍ غيره.

ما طلبوا من بيتٍ مخصوصٍ بهِ وحدهُ ﷺ؛ ليس مقصدَهُ ولا مأموله

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿بَيْتٌ﴾:

استعملَ لفظَ ﴿بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ بصيغةِ التَّنكيرِ على إرادةِ التَّعظيمِ والتَّفخيم، أيْ: "وليكنْ لكَ بيتٌ مزخرفٌ كأهلِ التَّرفُّهِ والتَّنعُّم"[3]؛ لأنَّكَ إذْ ذاكَ تكونُ منْ أهلِ الأرضِ العظماءِ الأغنياءِ، ذلك "أنَّهم رأوا النَّبيَّ ﷺ كان يتيمًا ثم كان فقيرًا، وقد حسبوا أنَّ النُّبوَّة مقترنة بالثَّروة، فالنَّبيُّ يجب أن يكون ثريًّا ليكون عظيمًا،

ظنّهم أنَّ النُّبوَّة مقترنة بالغنى، مؤشّر غرور وطغيان

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4453.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/ 512.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4454.

فالعظمة عندهم بالمال ولا عظيم من غير مال، ولذا قال ﷺ عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، أي: الطّائفِ أو مكّةَ "[1].

دلالة حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في السّياق:

معنى ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾، دالٌّ على بيانِ الجنسِ، أي: إنَّهم طلبوا أن يكونَ بيتُهُ من الذَّهبِ المتَّصفِ بكمالِ الحسنِ والزّينةِ[2].

بيانُ جنسِ البيتِ المطلوب، مع كمالِ الزّخرف، وتمام الزّينة

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿زُخۡرُفٍ﴾:

أوردَ لفظةَ ﴿زُخۡرُفٍ﴾ بصيغةِ التَّنكيرِ؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، لا للاهتمام به ﷺ، بل للزّيادة في إظهارِ عجزِه.

زيادة التَّعظيم للمطلوب؛ زيادةٌ في التّعجيز عن تحقيق المرغوب

دلالةُ العطفِ بالحرف ﴿أَوۡ﴾ في السّياق:

عُطِفَ بحرفِ التَّخييرِ ﴿أَوۡ﴾، فهذهِ هي الآياتُ الَّتي اقترحوها على النَّبيِّ ﷺ تحدّيًا؛ ليختارَ أيًّا منها، وإن عجزَ عن واحدةٍ منها؛ اختارَ غيرَها[3]، فيما ظاهرُهُ توسيعٌ عليهِ، إلّا أنَّ حقيقتهُ من بابِ التَّعنُّتِ والعنادِ وفرطِ الحماقةِ.

التّنوُّع في المطلوب، يدلّ على أنَّ الاقتراح كان من أكثرَ من جهة

دلالة التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَرۡقَىٰ﴾ مضارعًا:

آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَرۡقَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على تصويرِ حالةِ رقيِّهِ في السَّماءِ درجةً درجةً، وهم ينظرونَ إليهِ[4]، وفي ذلكَ تقريبُ استحضارِ ذهنِ السّامعِ، وتصويرُ هذا المشهدِ، ولا يؤدّي هذهِ الصّورةَ إلّا الفعلُ المضارعُ الدالُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ.

تصويرُ حالةِ رقيِّهِ في السَّماءِ، درجةً درجةً وهم ينظرونَ إليهِ

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾ وسرُّ تعديةِ ﴿تَرۡقَىٰ﴾ به:

عدّى فعلَ التَّرقّي بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ بقولِه تعالى: ﴿تَرۡقَىٰ فِي

التّفصيل في الطّلب تعنُّتٌ غريب، وعنادٌ عجيب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4454.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 512.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 548.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 512.

ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَن يترقّى صعودًا متدرِّجًا في السَّمواتِ كمن يصعدُ في المرقاةِ والسُّلَّمِ[1].

الغرض من المجازِ بالحذفِ، في قولِهِ: ﴿تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

بيان أنّ رقيَّهُ مطلوب في معارجِ السَّماءِ، لا في السَّماءِ نفسِها

في قولِهِ: ﴿تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مجازٌ بالحذفِ على تقديرِ: ترقى في معارجِ السَّماءِ[2]، فحذفَ المضافَ، وأقامَ المضافَ إليهِ مُقامَهُ تعظيمًا وتفخيمًا، والمعنى: أن يضعَ سلَّمًا، فيرقى؛ "لأنَّ القومَ قالوا: أو ترقى في سلَّمٍ إلى السَّماءِ"[3]، فتكونُ ﴿فِي﴾ دالّةً على المحذوفِ وهو السُّلَّمُ؛ ولأنَّ السَّماءَ ليستْ محلًّا للتَّرقّي، إنَّما ما فيها منْ معارجَ.

دلالةُ التَّعريفِ بـ(أل) في لفظ (السَّماءِ):

سواء دلّت على الجنسِ أو العهدِ، فهيَ السَّماءُ الَّتي ينزلُ منها خبرُ اللهِ

جاءَ بلفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ معرفةً لإرادةِ الجنسِ، فهم يعنونَ: في الهواءِ علوًّا، فهم يسمّونَ ما علا من الهواءِ سماءً؛ لأنَّهُ في حيِّزِ السُّموِّ، ويجوزُ أنْ تكونَ للعهدِ، والمقصودُ السَّماءُ المعهودةُ لديهم؛ لأنَّهُ ﷺ أعلمهُم بأنَّ اللهَ فيها، وأنَّ الخبرَ ينزلُ منها[4].

دلالةُ العطفِ بحرف (الواوِ):

وصلٌ بالعطفِ بينَ جملتَيِ التَّرقّي وانتفاءِ الإيمانِ، إن لم ينزلْ عليهِم الكتابُ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ عاطفةٌ[5]، فقد عطفتْ هذهِ الجملةَ على قولِهِ تعالى: ﴿تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، والوصلُ ظاهرٌ بينَ الآيتينِ؛ فقد علَّقوا رقيَّهُ في السَّماءِ بأن يأتيَهُم بكتابٍ منزَّلٍ.

وجهُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ المنفيّ ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ﴾:

نفيُ إيمانِهِم بالمضارعِ، مؤذنٌ بتجدُّدِهِ واستمرارِهِ

نَفَوا إيمانَهُم بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ والاستقبالِ بقولِهِم: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ﴾؛ للإيذانِ بتجدُّدِ نفي هذا الإيمانِ واستمرارِهِ حالًا واستقبالًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 210.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 693، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 195.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 554.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 485.
(5) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 629.

معنى اللّامِ في شبه الجملة ﴿لِرُقِيِّكَ﴾:

بيان أنّه لو رقى في السَّماءِ؛ لكذَّبوه، حتّى ينزل كتابٌ يرونَهُ ليؤمِنوا

اللّامُ في قولِه: ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ تحتملُ أن تكونَ للتَّبيينِ، ورقيُّهُ مفعولُ الفعل ﴿نُّؤْمِنَ﴾ فهم لم يصدِّقوا الرُّقيَّ حتّى يُنزِلَ عليهمُ الكتاب، ويجوزُ أنْ تكونَ اللّامُ للعلَّةِ على معنى: أنَّنا لنْ نصدِّقكَ لأجلِ رقيِّكَ حتّى يَنزِلَ علينا مِنْ أمركَ كتابٌ، وفي كلٍّ؛ فالمعنى عدمُ تصديقِهم للرَّسولِ، وإنْ ترقّى في السَّماءِ، ورأوهُ بأعينِهم حتّى يُرسِلَ كتابًا نازلًا يرونهُ[1].

وجهُ تكرار لفظ الرُّقيّ، وتعريفه بالإضافة:

اشتراط الإيمان بتنزُّلِ كتابٍ يؤكّد أنّ الرّقيّ حقّ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ كرَّرَ لفظَ الرُّقيّ، وعرَّفهُ بالإضافةِ إلى الضَّميرِ؛ لأنَّهم ما أرادوا أنْ يكونَ قولهُ: ﴿تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ حجَّةً عليهم، فيؤمنوا بنبوَّتِه لأجلِ رقيِّهِ وحدهُ[2]، فقد يكونُ من قبيلِ السِّحرِ؛ حتّى علَّقوا رقيَّهُ بغايتِهم، وهو أنْ ينزِّلَ عليهم كتابًا مفصَّلًا طِبقَ رغباتِهم.

نكتة عودِ ضميرِ الخطابِ (الكاف):

بيان أنّ رُقيَّهُ في السّماءِ، ليسَ بكافٍ عندَهم، حتّى يُسنَدَ بدليل مادّيّ

أضافَ ﴿لِرُقِيِّكَ﴾ إلى ضميرِ الخطابِ (الكاف) العائدِ عليهِ ﷺ تبكيتًا له؛ أيْ: إنَّ رقيّكَ ليسَ بكافٍ عندَنا في الإيمانِ بدعوتكَ ما لم يكنْ مؤيَّدًا بكتابٍ تنزِّلهُ علينا.

دلالة الحرف ﴿حَتَّىٰ﴾ في السّياق:

الدّلالة على الغاية، تنفي إيمانَهُم برقيِّهِ، حتّى يأتيَهُم بكتابٍ يقرؤونهُ

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ يفيدُ الغايةَ؛ فإنَّهمُ اشترطوا عليهِ أنْ يرقى في السّماءِ، ثمَّ نفَوا هذا الإيمانَ، وعلَّقوهُ بالغايةِ، وهو أنْ يأتيَهم بكتابٍ مقروءٍ بوساطةِ ﴿حَتَّىٰ﴾، ولوْ لم يفعلوا؛ لكانَ منافيًا لما تقدَّمَ مِنَ الإيمانِ المطلقِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 210.
(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 60.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 588.

دلالة التَّعبيرِ بالمضارعِ المضعَّفِ ﴿تُنَزِّلَ﴾:

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تُنَزِّلَ﴾ مضارعًا مضعَّفًا مضعَّفَ العينِ، هي الحكايةُ عن مقصودِ كلامهم، فإنَّهم أرادوهُ "كتابًا مكتوبًا من عندِ ربِّك مشتملًا على أساميا، وعلى دعوتكَ إيّانا إلى الإيمانِ، وتصديقنا بكَ"[1]، فهذهِ جملةُ أشياءَ كثيرةٍ طلبوا أن يشتملَ عليها كتابهُم المطلوبُ، وهو مناسبٌ لدلالةِ التَّضعيفِ في الفعلِ على التَّكثيرِ.

الكتاب المطلوب، أرادوه مشتملًا على الكثيرِ من الطَّلباتِ

نكتةُ تعديةِ التَّنزيلِ بالحرف (على):

جعلَ فعلُ التَّنزيلِ متعدّيًا بحرفِ الاستعلاءِ (على) بقولهِ: ﴿تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾؛ لأنَّهم أرادوا تحقيقَ معنى كونهِ من السَّماءِ[2]، فجاؤوا بما يدلُّ على نزولهِ من علٍ، وتعيين الجهة بالعلوِّ زيادة تعنُّت منهم، ولو قيل: (إلينا) لما أدّى هذا المُؤدّى.

السّياق مفيد تحقيقًا، لمعنى كون الكتاب مُنزَّلًا من السَّماءِ

سرُّ تقديم ﴿عَلَيْنَا﴾، على المفعولِ ﴿كِتَٰبًا﴾:

في تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيْنَا﴾ على المفعولِ ﴿كِتَٰبًا﴾ فائدةُ الاختصاصِ والحصرِ؛ فإنَّهم أرادوا كتابًا يُنزَّلُ عليهم وحدهُم، كتابًا خاصًّا بهم؛ إغراقًا في تعجيزهِ، وتكثيرِ الطَّلباتِ عليهِ.

إيضاح أنّهم أرادوا كتابًا خاصًّا بهم، دون سواهم، تعجيزًا لهُ

الغرض من تنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبًا﴾:

أورد قولهُ: ﴿كِتَٰبًا﴾ بالتَّنكيرِ على إرادةِ التَّعدُّدِ والشُّمولِ وعدمِ التَّعيينِ، فإنَّهم أرادوا كُتبًا لا كتابًا واحدًا، أرادوا لكلِّ واحدٍ منهم كتابًا بعينهِ[3]، يؤيِّدهُ قولهُ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾ [المدّثر: 52].

قد يُفهِمُ قولُهم معنى أنزلْ على كلِّ واحدٍ منّا كتابًا بعينهِ، لا كتابًا واحدًا

سرُّ تقييد (الكتاب) بالصّفة ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾:

قولهُ: ﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ صفة للكتاب المطلوب، وفي التَّقييد بالصِّفة

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/ 465.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 512.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 331.

مبالغة في التَّعجيز عن تحقيق المطلوب؛ إذ الكتب لا تكون إلّا على الرُّسُلِ، فكأنَّهم يريدون أن يكونوا مثله، ووقتَها لن يحتاجوه؛ لأنَّ كلًّا منهم صار رسولًا، وفيه بيان لبغضهم اصطفاءه ﷺ بالرِّسالة، وضميرُ الفاعلِ يعودُ عليهم، وضميرُ المفعولِ يعودُ على الكتابِ المطلوبِ، وهو دالٌّ على تعنُّتِهم؛ لأنَّهُ على معنى: نحنُ نقرؤهُ على أسلوبِنا ولغةِ كلامِنا حتّى نعيَ ما فيهِ؛ فإنَّنا لا نعتمدُ على تفهيمكَ أنتَ، وهذا غايةُ التَّعنُّتِ والتَّعصُّبِ[1].

كونهم يقرؤونه هم، غيرَ معتمدينَ على الرّسول، هو غايةُ التَّعنُّتِ والغرور

دلالة قوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾، وموقعه ممّا قبله:

الجملةُ استئنافيَّةٌ، وقعت إغلاقًا لمطالبهم المُتعنِّتةِ، فقطعت الطَّريقَ عليهم، وفيها أيضًا بيان لهم أنَّ أمره وحي، ولا سبيل له في الاجتهاد في الجواب، لذا جاء المعنى ملقَّنًا بالفعل ﴿قُلْ﴾، والتَّعبيرُ بهذا الفعلِ لهُ دلالةٌ تعجُّبيَّةٌ منْ شكيمتهم، وللتَّنزيه لهُ عمّا لا يليقُ بمثلِ هذهِ الاقتراحاتِ الشَّنيعةِ الَّتي تكادُ السَّمواتُ يتفطَّرنَ منها، وللإيماء إلى أنَّ ما قالوهُ، وطلبوهُ باطلٌ مردودٌ[2].

التّسبيح تعجُّبٌ من شدَّةِ شكيمتِهم، وتنبيهٌ على بطلانِ أقاويلهم

تنوّع القراءات في ﴿قُلْ﴾ وثراء المعنى:

قرأَ الجمهورُ الفعلَ ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ بصيغةِ الأمرِ، فيما قرأَهُ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ، بصيغةِ الماضي ﴿قَالَ﴾[3]، على كونهِ حكايةً لجوابهِ ﷺ عن قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ على طريقةِ الالتفاتِ[4].

القراءتان كأنَّهما آيتان، واحدة للأمر، والثّانية لتنفيذه

سرّ ورود مقول القول أسلوبَ تعجُّبٍ ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾:

المتأمِّلُ فيما اقترحوهُ عليهِ من الآياتِ يُلفي أنَّهم ما اقترحوا إلّا للمُلاجَّةِ والتَّعنُّتِ والعنادِ، فأمرَهُ الحقُّ سبحانهُ بأنْ يقدِّم بين يدي

اقتضاء اقتراح المُلجَّة والعناد؛ تقديم التعجُّب بين يدي الجواب

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 589.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 195.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 385، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 309.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 211.

الجوابِ التعجُّبَ، فقالَ لهُم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾، وهي المستعملةُ في إظهارِ التَّعجُّبِ والاندهاشِ[1]، وفيه تنزيهٌ عن أنْ يكونَ لهُ شريكٌ، فيطلبَ منهُ ما لا يكونُ إلّا من الإلهِ، وتعجيبٌ لوضوحِ عنادِهم بأنَّهم يطلبونَ ما لا قدرةَ عليهِ إلّا للّهِ وبإذنهِ؛ فإنَّ الرَّسولَ لم يدَّعِ قطُّ قدرتهُ عليهِ[2].

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيةِ، وعودُ الضَّميرِ فيهِ:

آثر لفظَ الرُّبوبيَّةِ بقولهِ: ﴿رَبِّي﴾، والضَّميرُ يعودُ عليهِ ﷺ لشعورهِ بمعاني الرُّبوبيَّةِ الكاملةِ، فهو الَّذي خلقهُ، وربّاهُ، وكمَّلهُ[3]، فمنْ كانتْ هذهِ صفتَهُ؛ فهو حريٌّ بأنْ يكونَ منزَّهًا عنْ أنْ يأتيَ، أوْ يتحكَّمَ عليهِ أحدٌ، أو يشاركهُ في قدرتهِ.

الـرَّبُّ الجليل منـزَّهٌ عـنْ أن يـتـحـكَّـمَ فيه أحدٌ، أوْ يشاركَهُ في القدرةِ

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ مع الآيةِ (108):

قولهُ تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾، وقولهُ تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ [الإسراء: 108]، في الآيةِ الأولى أضافَ لفظةَ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ المفردِ، فيما أضافهُ إلى ضميرِ الجمعِ في الآيةِ الثّانيةِ، وسببُ ذلكَ أنَّ الآيةَ الأولى قدْ تقدَّمها قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾، وهو سياقٌ مُتعلِّقٌ بالرَّسولِ ﷺ؛ فناسبهُ الإفرادُ، أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فقدْ بدأها بقولهِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ [الإسراء: 108]، والقائلون هم الَّذينَ أوتوا العلمَ، فناسبهُ الجمعُ، فكانَ السّياقُ القرآنيُّ محدِّدًا لما أضيفتْ إليهِ لفظةُ ﴿سُبْحَانَ﴾ إفرادًا وجمعًا.

إضافةُ (سبحانَ) إلى ضميرِ الإفرادِ والجمعِ حسب مـا جـرى فـيـهِ السّياقُ القرآنيُّ

دلالةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ بالحرفِ ﴿هَلْ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ استفهامٌ بمعنى النَّفي، دالٌّ على إنكارِ وقوعِ مطلوباتهِم؛ فالاستفهامُ تقريرٌ للنَّفي والإثباتِ،

بـيـان انـحـصـار وصفهِ ﷺ بأنَّه بشرٌ رسولٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 210.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 513.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4454.

فوصْفهُ الكاملُ ﷺ منحصرٌ بأنَّه بشرٌ رسولٌ لا غيرِه، وهو وصفٌ على الغايةِ من أوصافِ الكمالِ الإنسانيّ[1].

بلاغة التّعبير بأسلوب القصر، في السّياق:

التّأكيد على بشريّته ﷺ أبلغ ردٍّ

عبَّر النّظم الكريم بأسلوب القصر، بطريق النّفي والاستثناء، وهو أقوى أدوات القصر؛ للتّأكيد على بشريّته، بيانًا لهم أنَّ البشريّة لا تعارض كونه رسولًا، وذلك على أنَّ الاستفهام معناه النَّفيُ، فقد "قصرَ نفسَهُ علَى البشريَّةِ والرِّسالةِ قصرًا إضافيًّا، أيْ: لستُ ربًّا متصرِّفًا أخلقُ ما يطلبُ منّي، فكيفَ آتي باللّه والملائكةِ، وكيفَ أخلقُ في الأرضِ ما لم يخلقْ فيها؟!"[2].

نكتةُ التّعبيرِ بفعلِ ﴿كُنتُ﴾ ماضيًا، وعودِ الضّميرِ:

البشريّةُ لا تتعارض مع اختيارِهِ للرّسالةِ

في قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ عبَّرَ بفعلِ الكونِ ماضيًا، والضّميرُ المتّصلُ به يعودُ عليهِ ﷺ؛ للإيذانِ بجبلَّتِهِ البشريَّةِ، التي لا تتعارض مع اصطفائه رسولًا.

الغرض من تنكيرِ لفظتَي ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾:

للرّسول مواصفات البشر، مع كونه يوحى إليه، كسائرِ الرُّسلِ مِن قبلِهِ

أوردَ لفظتي ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾ نكرتين؛ لأنَّهُ مجرَّدُ إنسانٍ لا يستطيعُ ما لا يستطيعهُ البشرُ، وهو رسولٌ كسائرِ الرُّسلِ قبلهُ، لا يتعدّى ما يؤمرُ بهِ ممّا يبلِّغهُ اللّهُ؛ فلا يأتي بشيءٍ من تلقاءِ نفسهِ غيرِ ما يأذنُ له اللّهُ[3].

وجهُ الجمعِ بينَ اللّفظينِ ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾:

مَلمَحُ دفعِ حجّتهم في بشريَّتهِ، فهيَ ليستْ مطلقةً، ولكنّه مبلِّغٌ عن ربِّهِ

في قولهِ: ﴿بَشَرًا رَّسُولًا﴾ جمعَ بينَ لفظتي البشرِ والرَّسولِ دفعًا لحجَّتهم؛ لأنَّهم طلبوا منهُ ذلكَ على أساسِ بشريَّتهِ، "وأنَّ كونهُ رسولًا لا يخرجهُ عن بشريَّتهِ، إنَّما يعطي ما تقدِّمهُ لهُ السَّماءُ"[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4454.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 211.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 513.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 550.

نكتةُ تقديمِ ﴿بَشَرًا﴾ على ﴿رَّسُولًا﴾:

قدَّمَ ﴿بَشَرًا﴾ على ﴿رَّسُولًا﴾ في قولِه: ﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾؛ لأنَّ الرَّسولَ هو الوصف الذي تستندُ المحاورة عليه؛ فقدَّمَ بشريَّتَهُ توطئةً لذلكَ الوصفِ، وللإشارةِ إلى أنَّه بشرٌ، وليسَ في مقدورِهِ ما تقدَّمَ من طلباتِهم، فهو كسائرِ النّاسِ[1]، وفي تقديمِ ﴿بَشَرًا﴾ على ﴿رَّسُولًا﴾ فائدةٌ أخرى، وهي عزمهُ على إفحامِ هؤلاءِ المشركينَ المشكِّكينَ الَّذين جهلوا تلكَ البديهيّاتِ، فإنَّ الرَّسولَ الَّذي يقترحونَ عليهِ ذلكَ هو بشرٌ قبلَ أن يكونَ رسولًا[2].

بشريَّتهُ موطِّئةٌ لصفةِ الرِّسالةِ، مع كونها إشارةً إلى أنَّه ليسَ في مقدورِهِ ما طلبوا

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الارتقاء والصّعود:

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ ذكرَ الفعلَ ﴿تَرۡقَىٰ﴾ مؤثِرًا إيّاهُ على فعلِ الصُّعودِ؛ ذلكَ أنَّ الارتقاءَ أعمُّ من الصُّعودِ، فيقالُ: "رقى في الدَّرجةِ والسُّلَّمِ، كما يقالُ: صعدَ فيهما، ويقالُ: رَقيتَ في العلمِ والشَّرفِ إلى أبعدِ غايةٍ، ورُقّيَ في الفضلِ، ولا يقالُ في ذلكَ: صعدَ، والصُّعودُ على ما ذكرنا مقصورٌ على المكانِ"[3]، ولا شكَّ أنَّ انتقالهُ ﷺ إلى الأعلى ليسَ صعودًا ماديًّا فحسب؛ فقد كرَّمهُ الحقُّ سبحانه وأعلى مقامهُ في العلمِ والشَّرفِ والمجدِ والمكانةِ ما لا يوصفُ بالصُّعودِ، بلْ بالارتقاءِ؛ لأنَّهُ يشملُ كلَّ ما علا وارتفعَ.

الـرُّقـيُّ أعـمُّ مـن الـصُّـعـودِ؛ لأنَّـه يـشـمـلُ العلمَ والشَّرفَ والفضلَ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/ 589.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 8/ 550.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 259 - 260.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 29 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-26-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 29 : المجلد التاسع والعشرون، سورة الإسراء من الآية 78 إلى سورة الكهف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-26-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6484549 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»